

الوثيقة
دورية تاريخية محكمة
يصدرها
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين
العدد الثالث عشر . السنة السابعة
ذو القعدة ١٤٠٨هـ . يوليو ١٩٨٨م


بسم الله الرحمن الرحيم

الوثيقة

دورية نصف سنوية

تصدر عن

مركز الوثائق التاريخية

بدولة البحرين

رئيس التحرير

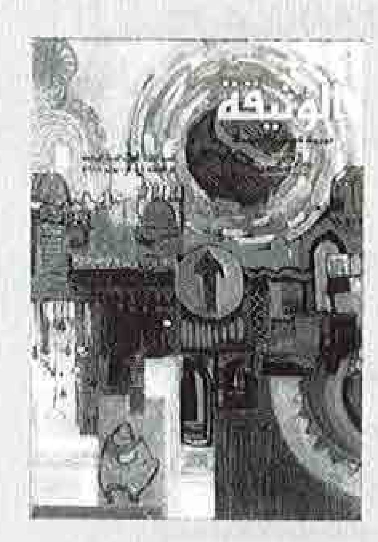
الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

العدد الثالث عشر ـ السنة السابعة
ذو القعدة ١٤٠٨ هـ ـ يوليو ١٩٨٨ م

لجنة المجلة

العنوان : مركز الوثائق التاريخية ص . ب ٢٨٨٨٢
تليفون : ٦٦٤٨٥٤
جميع المكاتبات ترسل باسم رئيس التحرير .

صورة الغلاف :



حي شعبي
للفنان السعودي : عبدالحليم رضوي

الفهرس

القســـم الانجـــليزي

جميع الابحاث المنشورة في هذا العدد تمثل وجهة نظر كاتبها

(الوثيقة)

كلمة العدد

بقلم : الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

تلاحظ عزيزي القارىء في هذا العدد والعدد القادم بإذن الله تركيزا في نشر الابحاث الخاصة بفترة الاستعمار البرتغالي . وقد دفعنا الى ذلك عدة اسباب منها :

اولا : أن مركز الدراسات والوثائق بالديوان الاميري برأس الخيمة بدولة الامارات العربية المتحدة نظم بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ندوة في ٢٩ اغسطس ١٩٨٧ . دُعي اليها مجموعة كبيرة من الاساتذة والمؤرخين العرب وخصصت لمناقشة مجموعة الابحاث التي اعدها هؤلاء الاساتذة والمؤرخون ودارت كلها حول موضوع حدد سلفا وهو فترة الاستعمار البرتغالي . وقد استهدف منظمو الدورة بهذا التحديد حشد أكبر عدد ممكن من الابحاث حول فترة محدودة ومعالجة القضية الواحدة من شتى جوانبها ومختلف زواياها . حتى يتم تناول كل ما دار فيها ، وحتى يجد الباحثون بعد ذلك المعلومات التاريخية الكافية عن فترة بعينها مما يوفر عليهم جهدا كبيرا في الرجوع الى شتى المصادر بالاضافة الى عرض لكل الآراء ووجهات النظر حول أحداث وشخصيات تلك الفترة لتصبح بعد ذلك سجلا سهل التناول لمن أراد وهو اتجاه محمود كان محور اهتمام الامانة العامة لمركز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية في دورتها العاشرة التي عقدت بعد ذلك بالكويت الشقيقة في الفترة من ٢١ الى ٢٣ نوفمبر ١٩٨٧م . حيث أوصت بالاتجاه الى اقامة الندوات ذات الموضوع الواحد لما ثبت من فائدتها في تغطية الاحداث المتعلقة بكل

فترة من الفترات التي مرت بالمنطقة نظرا لنقص المادة التاريخية وللمآخذ التي برزت حول بعض المصادر التاريخية التي كانت متاحة في السابق والتي اعتمد معظمها على مصادر اوروبية ليست سليمة من المآخذ ، أو خالصة من الشوائب أو بريئة من سوء النية .

ثانيا : إتجاه المراكز في المنطقة الى تعميق روح الأخوة وترسيخها وتنسيق العمل فيما بينها في مسيرتها الواحدة لتحقيق الهدف الذي تصبو اليه وفي هذا الاطار فإن أي جهد هو ملك للجميع واذا كانت «الوثيقة» تصدر في البحرين الا انها وغيرها من الدوريات التي تصدر عن المراكز الشقيقة تفتح صفحاتها لأي جهد يصدر عن أي مركز توفيرا للفائدة المرجوة ونشرا لأي عمل جيد على نطاق المنطقة كلها انطلاقا من أمر يؤمن به كل المتصدين للعمل التاريخي في هذه المراكز وهو أن الابحاث أو الدراسات مهما بلغت من الدقة والموضوعية وعظم الفائدة تصبح عديمة الجدوى اذا لم تنشر حتى يستفيد منها أكبر عدد من الطلاب والدارسين والمهتمين . وان دراسة عظيمة أو بحثا ممتازا يصبح لا قيمة له ولا فائدة منه اذا ظل حبيس الملفات أو الأدراج .

هذا من ناحية ، ومن الناحية الاخرى فإن روح التعاون الذي يربط بين المراكز في المنطقة ـ كما ذكرنا من قبل ـ والاحساس بالاخوة العميقة والتنسيق الكامل الذي يتحرك على أساسه كل جهد يبذله الاخوة سواء عن طريق الاتصالات المباشرة والدائمة أو عن طريق التنسيق عبر الامانة العامة والذي حول كل جهد يبذل في كل مركز الى اضافة رائعة لعمل كل المراكز الشقيقة مما يدفع بالعمل خطوات ملموسة دائما ويحقق الكثير من طموحات الهدف المنشود من اقامة المراكز على الساحة التي نحيا على ارضها . هذا الروح الاخوي دفع «الوثيقة» الى ان تفتح صدرها وصفحاتها لجهد بذل في مركز شقيق ناقلة ثمار هذا الجهد الى القراء في كل دول المنطقة جاعلة من نفسها جسرا يدعم أواصر التعاون والتآزر والتآخي القائم بالفعل .

ثالثا : لقد جاءت الهجمة البرتغالية امتدادا للحروب الصليبية التي تبلور فيها الصراع التاريخي بين الشرق والغرب والتي تحطمت في مدها

الأول عند الشام . وان كانت أشد منها ضراوة ووحشية فلم يكتف البرتغاليون بتدمير المدن وقتل الابرياء والتمثيل بهم وانما سلبوا ابناء المنطقة الكثير من مصادر الرزق بعد ان سيطروا على طرق التجارة الى الهند واستنزفوا الموارد وسلبوا الثروات ووزعوا قلاعهم الشهيرة التي انشاوها أو التي استولوا عليها على السواحل التي عاشت آمنة . بالاضافة الى ان الاستعمار البرتغالي فتح الباب امام الوان اخرى من الاستعمار سواء الهولندي أو الانجليزي مع اطلالات لبعض النفوذ الفرنسي والالماني واطماع لمختلف القوى الدولية بعد ذلك . وقد استفاد المستعمرون الجدد من الاخطاء التي وقع فيها الاستعمار البرتغالي فلجاوا الى اساليب أكثر خبثا وأكثر دهاء . واذا كانت فترة الاستعمار البرتغالي لم تستمر طويلا اذ سرعان ما لفظته المنطقة الا ان هذه الفترة كانت ولا شك احدى الفترات الهامة اذ تعكس صور الصراع المرير الذي دار بين ابناء المنطقة والأساطيل الدخيلة وتقدم دروسا يمكن الاستفادة منها في كيف أمكن التخلص من هذا الاستعمار البغيض ومحو آثاره .

رابعا : لقد نحت مجموعة الأبحاث التي قدمت والتي سوف تقدم بإذن الله منحىً طيبا . اذ لم تقتصر جهود العلماء فيها على الجانب السياسي فقط وانما تناولت الموضوع من جوانبه السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية بل واللغوية في بعض الأبحاث مما يقدم للباحثين باقة مختارة من جهود نخبة مختارة ايضا . ومما يمثل أساسا طيبا لأي أبحاث قادمة حول الموضوع وهو خط سليم نأمل أن يتحقق في المستقبل عبر جهد مماثل يخصص لفترة الاستعمار الهولندي والاستعمار الانجليزي ويعرض لظروف المنطقة اثناء التواجد العثماني وهكذا .

ذلك ما أردنا أن نلفت النظر اليه راجين أن تكون «الوثيقة» دائما عند حسن الظن وأن يحقق ما بذل ويبذل فيها من جهد هدفا نسعى جميعا لتحقيقه .

والله من وراء القصد ،،

عبدالله بن خالد آل خليفة

الصّراع العُماني

بدأ الغزو البرتغالي للبحار العربية في الشرق بعد وقت قصير من اكتشاف طريق راس الرجاء الصالح وايجاد صلة مباشرة بين المحيط الهندي واوربا، في اعقاب رحلة فاسكوديكاما الشهيرة في ١٤٩٧ ـ ١٤٩٨. وتركزت المراحل الاولى للغزو، في إخضاع موانىء شرق افريقيا، وانشاء قاعدة قوية على الساحل الغربي للهند. وشهدت سنوات ١٥٠٢ ـ ١٥٠٧، اخضاع كلوة وزنجبار وسوفالة وممباسا، والتقدم الى الموانيء الشمالية: لامو واوجا وبراوة [١]. وبحلول سنة ١٥٠٩، أي بعد مرور حوالى عشر سنوات على دخول البرتغاليين الى المحيط الهندي، تم اخضاع ساحل شرق افريقيا، وايقاع الدمار بالمستوطنات العربية الممتدة من سوفالة في الجنوب، الى براوة في الشمال، مع جزر زنجبار وبمبا ومافيا. وبنجاح البرتغاليين في ايقاع هزيمة كبرى باسطول المماليك في معركة ديو [٢]، تمكنوا من تأسيس قاعدة قوية في غوا، على



البرتغالي

خلال القرن السابع عشر

الدكتور صالح محمد العابد

الساحل الغربي للهند في ١٥١٠ أصبحت مركز ممتلكاتهم في آسيا واندفع البرتغاليون اكثر نحو الشرق، الى جزر التوابل (اندونسيا) والملايو واستولوا على مالقا[٣] في ١٥١٣[٤]. وكان الهدف الاستراتيجي للبرتغال التحكم المطلق بالتجارة الشرقية عن طريق السيطرة على مخارجها التقليدية، ومن ثم محق اقتصاديات العالم الاسلامي المهيمن على هذه التجارة. وهذا يفسر عدم اكتفاء البرتغاليين بالتحكم بالنقاط الاستراتيجية لممرات هذه التجارة، وتبنيهم اسلوب القرصنة والهجمات في البحار العالية ومحاصرة الموانىء لمنع السفن الاسلامية من ممارسة اى نشاط ملاحي او تجارى [٥]. ويتبع ذلك، تأسيس امبراطورية استعمارية تضم شرق افريقيا والهند والخليج العربي والساحل الجنوبي للجزيرة العربية، في المرحلة الاولى، تعقبها مراحل اخرى، باحتلال عدن واختراق البحر الاحمر والتحكم بساحليه [٦].

ويعود الفضل في تنفيذ ذلك المخطط الى الكابتن افونسو البوكيرك[٧] الذى اخذ على عاتقه بناء امبراطورية قائمة على اساس متين لا يمكن تحديه في المحيط الهندى. فكان احتلاله لجزيرة سوقطرا في ١٥٠٧، ودخوله الخليج العربي بعدها مباشرة للاستيلاء على موانئه المهمة تطبيقا عمليا للسياسة التى رسمتها البرتغال. وبالسيطرة على سوقطرا والهيمنة على هرمز ومالقا، ثم تأسيس نظام للتحكم يستمد بقاءه وقوته من استمرار تفوق البحرية البرتغالية وعدم تعرضها لاى ضعف طارىء[٨].

اتسمت عمليات البوكيرك في خليج عمان والخليج العربي باقصى درجات الوحشية والحقد والتدمير، واسفر عنها احتلال معظم موانىء الساحل العمانى من رأس الحد الى خورفكان [٩]، ثم اجبار هرمز [١٠]، على الخضوع. واقتضى الامر حملة برتغالية كبرى اخرى بقيادة البوكيرك لتثبيت احتلال هرمز في ١٥١٥ التى اصبحت الى جانب مسقط والبحرين، قواعد الارتكاز البرتغالية الرئيسه في الخليج العربي. ولحقبة تزيد على القرن، عانى سكان الخليج العربي مرارة الاضطهاد الشرس من جانب البرتغاليين الذين جعلوا انفسهم سادة الموانىء الرئيسه على جانبي الخليج، واستخدموا مركزهم، بقدر امكانهم، لمنع اية سفينة اخرى من التجارة. فكانت سفنهم تسيطر على مياهه، وحكامهم ينظمون تجارته باجازات تصدر منهم، والقلعة العظيمة في هرمز تتحكم بمدخله ولم تتمكن اى من دول المنطقة ان تكسر القبضة البرتغالية لانه لم يكن بمقدور احداها تحدى البرتغاليين في البحر [١١]. كما لم تؤد الثورات التى قام بها العرب في الموانىء المختلفة الى زعزعة تلك السيطرة [١٢].

تعرضت الهيمنة البرتغالية الى الاهتزاز منذ اوائل القرن السابع عشر بتأثير عوامل متشابكة، منها اتحاد العرشين الاسبانى والبرتغالي سنة ١٥٨٠[١٣]، فاصبحت البرتغال تابعة لاسبانيا حتى عام ١٦٤٠، عندما استعادت استقلالها، اذ توجه اهتمام أسبانيا على نحو بين تجاه مستعمراتها في العالم الجديد [١٤]. ومنها تعصب البرتغاليين وقسوتهم، الى جانب ما اتصف به حكامهم وموظفوهم من جشع وفساد مما جعل سكان الخليج يمقتونهم[١٥]. هذا، بالاضافة الى ظهور قوى اوروبية اخرى منافسة لهم ولاسيما الانجليز والهولنديون [١٦]. ولكن اهم عوامل تفكك وانهيار السيطرة البرتغالية في رأيي هو تنامى قوة العرب العمانيين في عهد سلالة اليعاربة التى قدر لها ان تحسم الصراع لصالح العرب، وتقضى

على الامبراطورية البرتغالية لا فى الخليج العربي وحسب، وانما فى غرب المحيط الهندي كذلك.

شكل انتخاب ناصر بن مرشد اليعربي اماما فى نهاية ١٦٢٤ منعطف تحول مهما فى تاريخ عمان، دخلت فيه عصرا جديدا مجيدا «والامبراطورية البحرية التى سيبنيها اليعاربه ستكون ندا للقوى الاوروبية، وبفضل ثروتها اصبحت عمان من جديد قرابة قرن قطرا مزدهرا» [١٧]. وكان تحرير سواحل عمان من الهيمنة البرتغالية، هدفا مركزيا للامام ناصر لان ترصين الامامة وثباتها لا يمكن ان يتحقق دون تحرير الموانىء، فاذا لم يتم التحكم بها، والحصول على الدخل الذى تقدمه، فان ذلك سيؤدى الى نتائج وخيمة[١٨] ولكن الامام كان يدرك ان تحقيق ذلك الهدف لن يتم بدون وحدة وطنية تجمع ما بين القبائل العمانية كافة، وان ذلك الهدف سيكون له، دون شك دور حاسم فى قوة القبائل وتلاحمها. ولهذا فما ان تحقق له توحيد البلاد [١٩] حتى وجه القائد مسعود بن رمضان على رأس جيش كبير، فى نهاية ١٦٣٢ الى قاعدة الوجود البرتغالى فى مسقط [٢٠].

التقى الجيش العمانى بالقوات البرتغالية فى الدويج، قرب مطرح، وفى القتال الذى تلا ذلك، تم تدمير حصون المراقبة المشرفة على مسقط، وقتل عدد كبير من البرتغاليين، وهرب الباقون الى الحصون الداخلية، ولم يكن بمقدور القائد العمانى ان يحقق نتيجة حاسمة، بسبب الضعف الذى اصاب قواته، وقوة تحصينات مسقط، ولهذا وافق على طلب الهدنة الذى تقدم به القائد البرتغالى، متعهدا بعدم التعرض للعمانيين، ومن ثم، لم تسفر الحملة عن نتيجة حاسمة [٢١]. ولهذا وضع الامام خطة بعيدة المدى تستند الى تجريد البرتغاليين من قواعدهم على طول الساحل، قبل شن الهجوم الكبير على قاعدة ارتكازهم الرئيسية في مسقط فوجه اهتمامه اولا الى تحرير جلفار (رأس الخيمة) من السيطرة البرتغالية ـ الفارسية المتمثلة بقلعتين احداهما برتغالية، تعززها عند الساحل سفينتان حربيتان، اما الاخرى ففارسية يقود حاميتها المدعو ناصر الدين.

تقدم جيش الامام يقوده على بن احمد، يساعده عدد من قادة اليعاربة، فحاصر القلعة الفارسية. وكانت الحامية تتلقى الدعم من السفينتين الحربيتين البرتغاليتين، ولهذا فقد كان من المتعذر شن هجوم مباشر. ودفع هذا بالقائد العمانى الى ان يأمر بالهجوم ليلا على برج مرتبط بالقلعة وتمكنت القوة المهاجمة من الاستيلاء على البرج، واندفعت مقتحمة القلعة، وبعد قتال لم يستغرق طويلا

استسلمت الحامية الفارسية[٢٢] وفى خلال ذلك، وصلت تعزيزات عسكرية جديدة لقوات الامام، تتألف من قوة من قبيلة الدهامش يقودها خميس بن رمضان. فاحكم حصار القلعة البرتغالية، التى اضطر قائدها الى طلب الصلح مقابل اخلاء القلعة وبذلك، تم تحرير ساحل السر باكملة فى تموز ١٦٣٣[٢٣]. وقد دفع اندحار الفرس وطردهم من جلفار الى لجوئهم للانجليز طلبا للمساعدة، ولكن المشروع فشل حينما اعدم الشاه صفي حاكم شيراز فى العام نفسه[٢٤].

شجع هذا الانتصار الامام على مواصلة الجهاد لتحرير صحار. ففى السنة نفسها، اصدر امره الى والي ليوا، حافظ بن سيف، لحشد قوة لهذا الغرض وتقدمت القوة الى صحار حيث واجهت مقاومة ضارية من البرتغاليين الذين تحصنوا داخل قلعتها القوية.. ومن اجل احكام الحصار على المدافعين، بنى القائد العمانى قلعة قريبة من القلعة البرتغالية[٢٥]. وتم التوصل الى هدنة وافق البرتغاليون بموجبها على وقف القتال وتسليم مراكزهم المحصنة فى مطرح والسماح للعمانيين بالتجارة الحرة من مسقط[٢٦].

وباشر الامام فى مطلع السنة التالية ١٦٣٤، عملياته لتحرير مينائى صور وقريات، وتمكن من تخليصهما من قبضة البرتغاليين[٢٧].

وهكذا، خلال عشر سنوات من وصوله الى الإمامة تمكن ناصر بن مرشد من طرد الغزاة من الساحل العمانى كله عدا نقطتين فقط، أدت هجماته المتواصلة على المراكز البرتغالية الى تدهور معنوى كبير فى نفوس البرتغاليين كان بالامكان استغلاله بمواصلة الضغط على بقية قواعد ارتكازهم فى الساحل ولا سيما مسقط. إلا أن تطور الأوضاع الداخلية، عرقل خطة الامام، وأجبره على توجيه اهتمامه للقضاء على حركة التمرد التى قادها شيخ بنى هلال ناصر بن قطن، تعاونه بعض القبائل. ووقعت سلسلة من المعارك بين الطرفين استغرقت بضع سنين، استغلها البرتغاليون فأعادوا سيطرتهم على صور وقريات. وتمكن الامام بعد جهود مضنية أن يقضى على التمرد، وفر ناصر بن قطن الى الاحساء[٢٨]، وبذل البرتغاليون جهودهم لتشجيع الانشقاقات الداخلية. ففى ١٦٤٣ دعموا حركة تمرد قام بها الشيخ سيف بن محمد حاكم ليوا وساعدوه بقوة عسكرية، ولكن الامام سارع على رأس قوته فسحق التمرد، وأوقع هزيمة منكرةبالقوة البرتغالية وأسر أفرادها كافة. واتبع ذلك بتطويق الحامية البرتغالية فى صحار. وبعد مقاومة غير مجدية أمام إصرار القوات العمانية

التى يقودها الامام بنفسه، استسلمت الحامية فى ٧ تشرين الثانى ١٦٤٣ [٢٩]. ففتح ذلك الطريق الى طرد البرتغاليين من السواحل العمانية .

وشهدت سنة ١٦٤٨ بداية المرحلة الحاسمة فى حرب التحرير، وتتويجا للخطة الأولى بانتزاع قاعدة الارتكاز البرتغالية فى مسقط ، تحرك جيش كبير بقيادة مسعود بن رمضان الى الهدف. ووصل هذا الجيش الى مسقط فى ١٦ آب، وباشر بعملية التطويق وتواصل القتال حتى ١١ أيلول، ونجح العرب خلاله من انتزاع معظم تحصينات الميناء، مما أجبر الحامية البرتغالية على طلب الصلح، وتضمنت الشروط التى عرضها القائد العربى : استلام قلعتى صور وقريات، اعفاء العرب من دفع الضرائب على البضائع فى مسقط التى يجب إزالة أسوارها، أن يدفع البرتغاليون جزية الى الامام [٣٠]. وعد القائد البرتغالى دوم جولياودانورنها (Dom Juliao da Noronha) هذه الشروط ثقيلة جدا، ولهذا استؤنف القتال وتمكنت القوات العربية من الاستيلاء على المرتفعات المشرفة على القلعتين الكبيرتين. فورت كابتن ومكلا، واستمر الضغط بإصرار متزايد على البرتغاليين ستة أسابيع اخرى، مما ولد اليأس فى نفوسهم. ووجد دانورنها نفسه مجبرا على التماس الصلح مجددا موافقا على الشروط العربية، وتم توقيع اتفاقية فى ٣١ تشرين الأول ١٦٤٨ تضمنت : تدمير قلاع صور وقريات، إزالة القلعتين البرتغالية والعربية فى مطرح، وانسحاب القوات المتحاربة منهما، واعلان حيادهما، اعفاء العرب من دفع الضرائب وضمان حرية التجارة، امتناع البرتغاليين عن اقامة تحصينات خارج مسقط [٣١] ويمكننا القول أن هذه الاتفاقية حددت بداية النهاية للوجود البرتغالي فى مسقط ولم يعد الأمر يتطلب إلا محاولة موحدة وقوية لتأمين طردهم منها .

أثارت أنباء الحصار العربى للحامية البرتغالية قلقا كبيرا فى الأوساط البرتغالية فى كل من مستعمرتها فى الهند، وفى العاصمة لشبونة، وسارع نائب الملك فى الهند الدوم فيلبي ماسكارنياس (Mas-carenhas) الى إرسال جزء من الأسطول لنجدة الحامية ووصل الأسطول الى مسقط فى منتصف تشرين الثانى ١٦٤٨ ليفاجأ بالتسوية التى تمت بين قائد الحامية والقيادة العربية وتغلبت روح العنجهية الاستعمارية على قائد الأسطول، فوجه الاتهام الى دوم جولياو لعدم صموده أمام الحصار العربى، وأرسله الى غوا حيث ألقى فى السجن [٣٢]. وحينما وصل نبأ حصار مسقط الى لشبونه، أرسل الملك دوم جوا الرابع (Dom Joao) أوامره فى ٤ كانون الثانى طالبا بذل كل جهد من أجل التمسك بمسقط، وزيادة عدد

السفن الحربية فى الميناء، ومنع العرب من البقاء فى المدينة وتقوية حصن خصب [٣٣]. ولكن فى الوقت الذى وصلت فيه تلك الأوامر الى غوا، كان الأمر قد خرج عن إرادة القادة البرتغاليين، وكان العلم العمانى يرتفع بشموخ على طول الساحل المحرر.

توفى الامام ناصر بن مرشد فى ١٠ ربيع الاخر ١٠٥٩ هـ/٢٣ نيسان ١٦٤٩، بعد أن حقق الاستقرار وعمق الوحدة الوطنية وأنجز المرحلة الأصعب من مراحل طرد الغزاة. ومع أنه توفى بدون أن يعين خليفة له، فان القضاة وكبار الشيوخ الذين اجتمعوا فى الرستاق يوم وفاته، اجمعوا على انتخاب ابن عمه وقائده العسكرى سلطان بن سيف اماما. وأيدت القبائل كافة هذا الاختيار. وشهد عهد الامام الجديد المرحلة الأخيرة من عملية التحرير وطرد الغزاة نهائيا من البلاد. فما أن أعلنت بيعته بالامامة، حتى تقدم بنفسه لقيادة العمليات الحربية التى تكللت بنهاية مجيدة خلال تسعة أشهر [٣٤]. وسارعت القبائل بابتهاج مستجيبة لدعوة الامام بحمل السلاح واحتشدت فى (سيح الرمل) خارج مطرح [٣٥] وكانت سنة ١٦٤٩ تقترب من نهايتها حينما تحرك سلطان بن سيف ليباشر العملية الحاسمة التى خطط لها لاستئصال الوجود البرتغالى الذى هيمن على الموانىء المهمة من ساحل عمان، متحديا مشاعر السكان مدة مائة وأربعين عاما.

فى مطلع سنة ١٦٥٠ قامت قوة فدائية صغيرة بهجوم ليلى مباغت فعبرت السور واندفعت الى شوارع مسقط مجندلة كل من وقف أمامها من الغزاة. وأصيب البرتغاليون بانهيار معنوى تام، فتدافعوا الى السفن الراسية فى الميناء والى المركز (مخزن السلاح والذخيرة) طلبا للنجاة. واندفع العرب نحو أعدائهم ونجحوا فى الاستيلاء على سفينتين واحاطوا بالمركز. ولم يتمكن المدافعون وعلى رأسهم الحاكم العام فرانسسكو دى تافونا من الصمود طويلا، فانسحبوا الى القلعة الحصينة (فورت كابتن - الجلالى) تاركين الحرس البلوش لمصيرهم. وفى يوم ٢٣ كانون الثانى استسلمت القلعة، وبعد ثلاثة أيام استسلم المركز [٣٦]. وتراجع الاسطول الذى يقوده براز كلدارا داماتوس الى ديو، بعد أن فقد اثنتين من سفنه. ونجد من المناسب ان نقتبس أقوال شاهد عيان لعملية الهجوم على مسقط أوردها مايلز [٣٧]:

«**بلغت الحماسة لدى العرب درجة قصوى بحيث هددوا بالتمرد اذا لم يقدهم ضباطهم على الفور الى الهجوم على أسوار المدينة. وحينما لم يجد الملك (الامام) حجة يمكن أن تهدىء ثائرتهم على الرغم من اقتراب الليل، أصدر أمره بالهجوم وجوبه المهاجمون بنيران كثيفة أطلقها البرتغاليون عليهم من**

قلاعهم على المرتفعات، ولكن العرب تقدموا الى الامام ولم يكن بحسبانهم أن يتراجعوا ولم يبالوا بالأعداد الكبيرة من رفاقهم الذين تساقطوا قتلى وواصلوا تسلق الأسوار على أشلاء من سقطوا. وعند غياب الشمس تمكنوا من السيطرة على بابين من أبواب المدينة، مجبرين المدافعين على الفرار واندفعوا خلف أعدائهم باصرار بحيث لم ينج منهم أحد بالرغم من فرارهم بأقصى سرعة باتجاه القلعة العظيمة حيث مقر الحاكم. وهذه القلعة مبنية على صخرة عظيمة تحيط بها المياه من كل جهاتها تقريبا، والطريق الوحيد المؤدى اليها لا يسمح لأكثر من شخصين أو ثلاثة بارتقائه سوية. وأدرك العرب أن اقتحامها أمر مستحيل بدون تضحية جسيمة.

ولهذا فرضوا عليها الحصار الكامل وخسر العرب فى الهجوم ما بين أربعة الى خمسة آلاف من رجالهم... وأجبروا المتحصنين فى الحصون الصغيرة على الاستسلام... ثم استسلم رجال الحصن بدون قيد أو شرط» .

وفى الوقت الذى تم فيه تحرير مسقط، نجحت قوة عمانية أخرى فى الاستيلاء على حصن خصب [٣٨]. وهكذا جاءت نهاية ورثة افونسو البوكيرك فى الخليج العربى .

ادرك الامام سلطان بن سيف ان معركة مسقط لن تكون نهاية الصراع مع البرتغال، ولهذا كان امتلاك قوة بحرية قوية موازية لقوة العدو امراً حاسما لتأمين السواحل من الهجمات التدميرية وصيانة تجارة البلاد من تعرضها للتخريب. وبعد ان نظم اوضاع مسقط، وعين عليها ابن بلعرب حاكما وامر بترميم اجزاء السور الذى تعرض للتخريب خلال المعارك، ركز اهتمامه على قوته البحرية. فالصراع مع العدو سيكون صراعا بحريا بالدرجة الاولى. ولتحقيق نتيجة حاسمة، كان على العمانيين تطوير بناء سفنهم، وتبني طراز جديد من السفن الحربية. وقد شكلت السفن البرتغالية التى اسرها العرب خلال معارك التحرير، نواة الاسطول الحديث[٣٩] . وخلال وقت قياسي، تحرر العمانيون من الاسلوب التقليدى فى بناء السفن ذات الهيكل الذى تشد الواحة بالحبال، واخذوا ببناء سفن على الطراز الاوروبى من ذوات الاشرعة المربعة المزودة بمدفعية حديثة . وحتى المراكب المبنية على الاسلوب القديم اخذت تبنى بالواح مثبتة بالمسامير[٤٠] . وتمكن أئمة اليعاربة المتعاقبون[٤١] وحتى عام ١٧١٨، من جعل عمان اعظم قوة بحرية غير اوروبية فى غرب المحيط الهندى، وبلغ اسطولهم اوج عظمته خلال العقدين الاول والثانى من القرن الثامن عشر .

وصف الكابتن تشارلس لوكير الذى زار مسقط فى ١٧٠٦ المدينة واسطولها بقوله[٤٢] : «تطور هذا الميناء كثيرا على ايدى العرب الذين انتزعوه من القبضة البرتغالية.. ويمتلك العمانيون اربعا وعشرين سفينة حربية وعشرين سفينة تجارية واحدى سفنهم تحمل ٧٠ مدفعا، وليس فى اسطولهم سفينة تحمل اقل من ٢٠ مدفعا. ومع صعوبة الحصول على البارود، فان العرب اكثر الناس سخاء به فى كل المناسبات... وتجدهم يرفعون راياتهم الحمر بخيلاء على كل صوارى سفنهم» . اما هاملتون، فقد قدر الاسطول العماني في سنة ١٧١٥ بانه يتألف من: «سفينة واحدة ذات ٧٤ مدفعا واثنتين بـ ٦٠ مدفعا، وواحدة ذات ٥٠ مدفعا، وثماني عشرة سفينة اصغر حجما تحمل ما بين ١٢ الى ٣٢ مدفعا لكل منها، وبعض سفن الترانكي او السفن ذات المجاديف تحمل من ٤ الى ٨ مدافع لكل منها»[٤٣] . اما السالمي، فقدر قوة الاسطول فى الحقبة نفسها ما بين اربع وعشرين الى ثمان وعشرين سفينة حربية تحمل اكبرها وتدعى (الملك) ثمانين مدفعا ضخما[٤٤] .

جاء رد الفعل البرتغالى على الاندحار فى مسقط سريعا، فما ان وصلت انباء الهزيمة الى نائب الملك دوم فيلبي، حتى ارسل اسطولا من سبع سفن الى الخليج العربى، واصدر تعليماته الى قائد الاسطول بالسعي للحصول على مساعدة الفرس ضد العمانيين[٤٥]. وبعد ان توقف الاسطول فى ميناء كونك، اتجه الى القطيف وهناك التقى اسطولا عمانيا، فنشبت معركة بحرية اسفرت عن تراجع البرتغاليين بعد ان فقدوا سفينة حربية اسرها العرب الى جانب ست سفن تجارية برتغالية[٤٦] .

وفشل اسطول برتغالي اخر اكثر قوة ارسله نائب الملك في آذار ١٦٥٠ فى استعادة خصب او اي ميناء اخر على ساحل عمان، امام مقاومة الاسطول العمانى[٤٧] . وقد ولد النمو السريع للقوة البحرية العمانية اقصى درجات القلق لدى البرتغاليين، فكتب نائب الملك الى حكومته : «اصبح العرب على ثقة كبرى بانفسهم... بحيث تتطلب مواجهتهم ارسال اسطول كبير، لا من اجل تدميرهم فقط، وانما للحيلولة دون توجههم الى ممباسا، وهو امر اصبح بمقدورهم تحقيقه[٤٨] وفشل اسطول كبير ثالث ارسل فى مايس ١٦٥٢ في تحقيق نتيجة حاسمة[٤٩] .

الهبت هذه الانتصارات الكبيرة التى حققها العمانيون حماستهم فلم يكتف الامام سلطان برد حملات الاغارة البرتغالية على سواحل عمان، بل عمد الى نقل الحرب الى مناطق وجود العدو في المحيط الهندى. ففي ١٦٥٢ هاجمت قطعة من الاسطول العماني الحامية البرتغالية فى زنجبار وابادت معظم افرادها ومن بينهم قائد الحامية[٥٠] وتعرضت المواقع

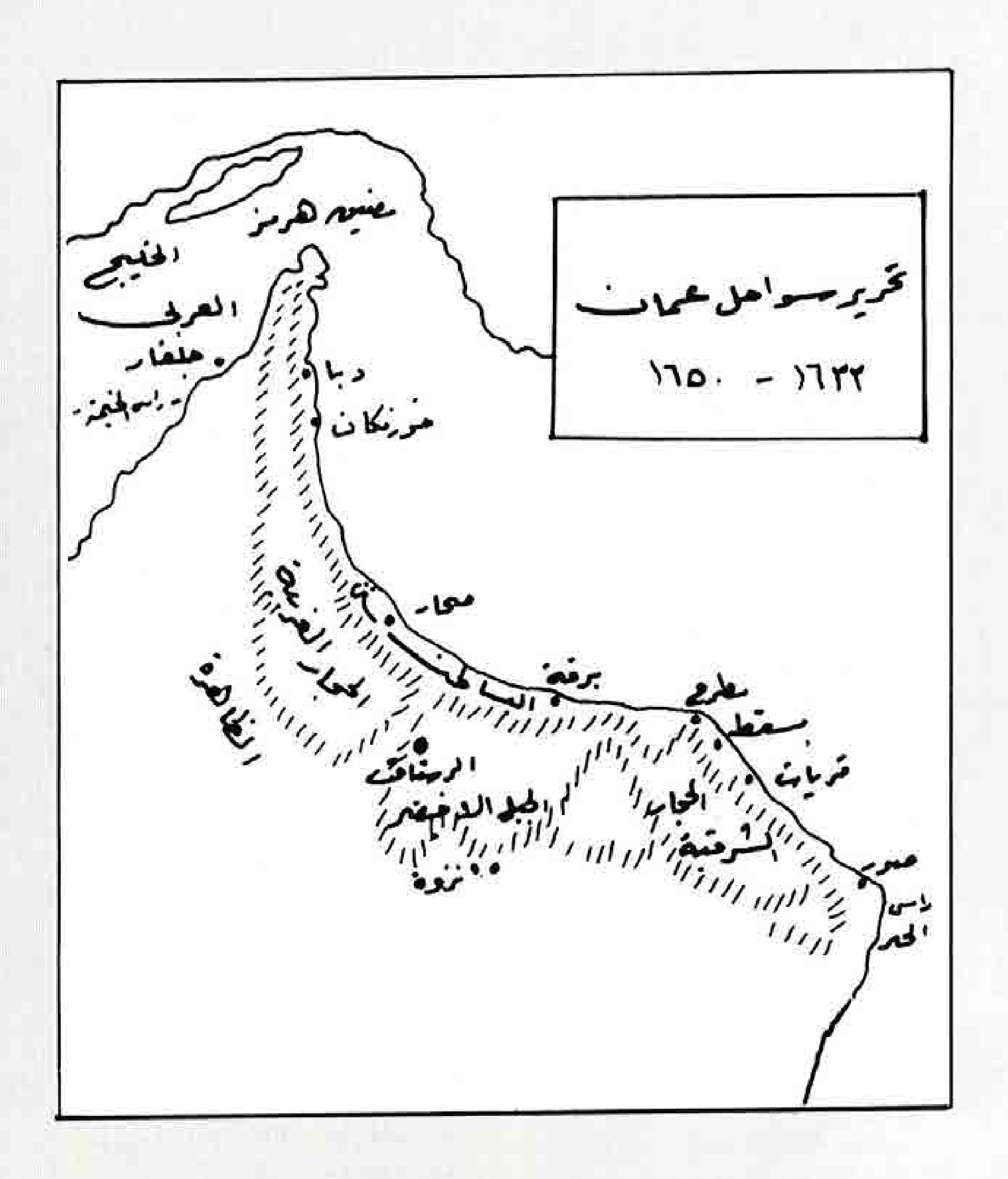
البرتغالية في الهند الى الهجمات التالية: بومباي في ١٦٥٥ و ١٦٦١، وديو في ١٦٦٨، و١٦٧٠ و١٦٧٦، وباسين في ١٦٧٤، وسالست في ١٦٩٤ و ١٦٩٩، وباسلور ومانغلور في ١٦٩٥ و ١٦٩٦. وشمل ميدان المعارك غرب المحيط الهندي، وخاض العمانيون صراعا طويلا لتحرير موانيء شرق افريقيا[٥١]. ونجح الامام سيف بن سلطان الاول ١٦٩٢ ـ ١٧١١ في تحرير ممباسا بعد حصار متواصل للقاعدة البرتغالية دام اكثر من سنتين[٥٢]. وتقدم الاسطول العماني على طول ساحل شرق افريقيا مجبراً الحاميات البرتغالية على الاستسلام، فتحررت بمبا وزنجبار وباتا وكلوه «واستقبل السكان بسعادة غامرة تحررهم من السيطرة البرتغالية»[٥٣].

وشجعت الهزائم المتوالية التى اوقعها العرب بالبرتغاليين سكان شرق افريقيا على القيام بثورة شاملة، وتمكن الثوار من تدمير المواقع البرتغالية الاخرى، واصاب الانهيار النفوذ البرتغالي من رأس غوار دانو الى رأس دلغادو[٥٤].

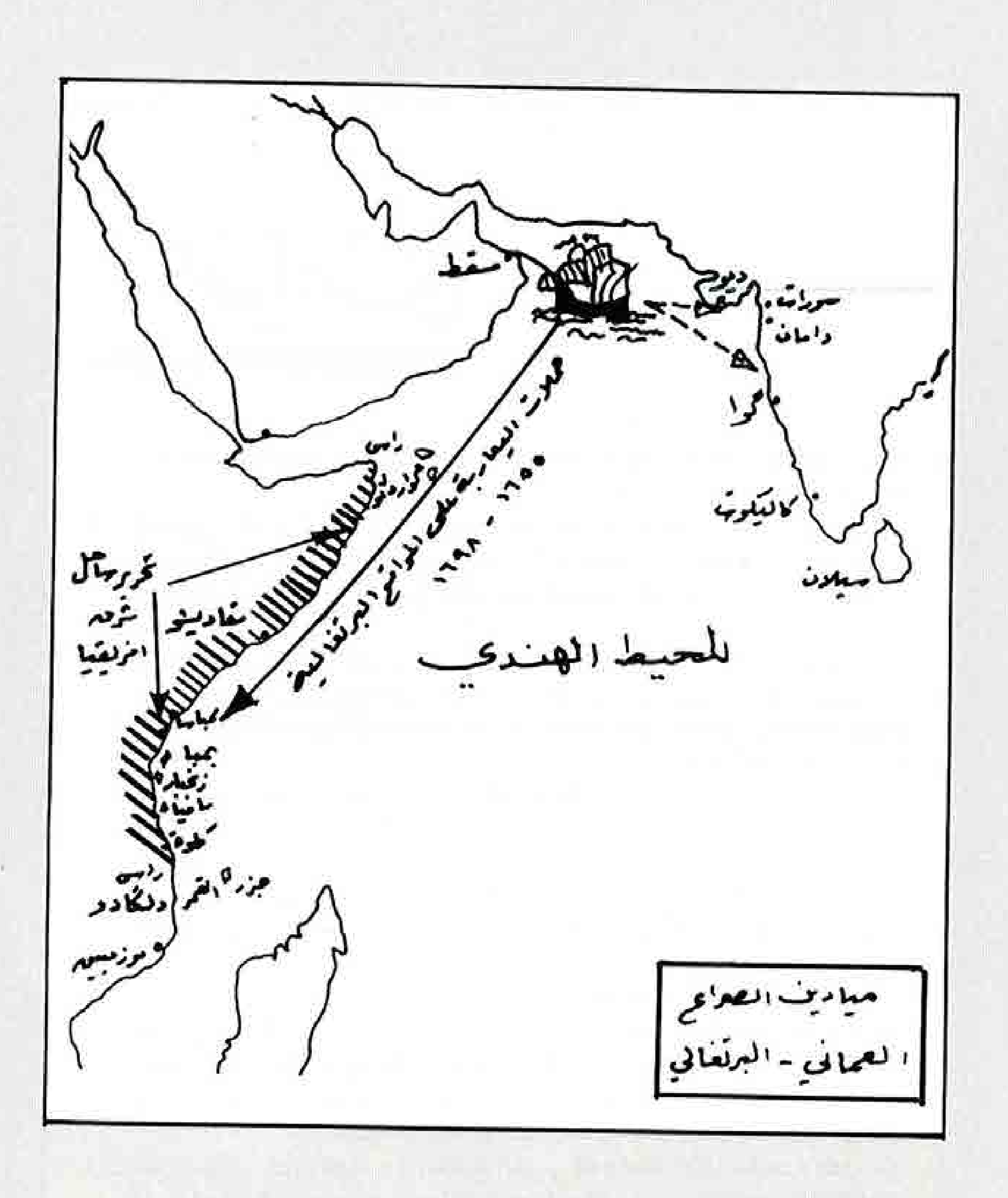
وادت الضربات التى وجهها العرب للمواقع والاساطيل البرتغالية الى اضعاف البرتغاليين عسكريا وشل تجارتهم مما اتاح الفرصة لمنافسيهم الاوروبيين لتحقيق المكاسب على حسابهم في الهند وجنوب شرق آسيا وانتزاع ممتلكاتهم. فقد شنت هولندا حرب استنزاف على الوجود البرتغالي في جنوب شرق اسيا وتمكنت في ١٦٤١ من انتزاع مالقا، وفي ١٦٥٦ استولت على كاليكوت، وفي ١٦٥٨ على سيلان، وتعاقب سقوط القواعد البرتغالية على طول ساحل كورماندل وارخبيل الملايو[٥٥].

ويتجلى الضعف الذى اصاب البرتغاليين في لجوئهم الى الانجليز طلبا للدعم. وتعبر المعاهدة المعقودة بين الملك الفونسو السادس وتشارلس الثاني في ٢١ حزيران ١٦٦١، وكانت ثمرة الزواج بين كاترين ابنة ملك البرتغال وملك انجلترا عن ذلك الضعف، اذ تنازلت البرتغال فيها لانجلترا عن جزيرة بومباى ذات الاهمية الاستراتيجية ونصت مادتها الحادية عشرة: من اجل تمكين ملك انجلترا من الدفاع عن رعايا ملك البرتغال ومساعدتهم وحمايتهم في تلك الانحاء، فان ملك البرتغال ينقل الى ملك انجلترا وورثته، الى الابد ميناء وجزيرة بومباى بجميع حقوقها وثرواتها ومقاطعاتها»[٥٦].

وهكذا فقد ادت الضربات العمانية للبرتغاليين في البر والبحر الى بلوغهم درجة الاعياء «وما ان انتهى القرن السابع عشر، حتى لم يعد البرتغاليون منافسين خطرين في اى حقل من حقول التجارة الشرقية»[٥٧]. ولم يبق لهم من قواعدهم المنبثة في الشرق الا جيوب قليلة اهمها غوا ودامان[٥٨].



تحرير سواحل عمان
١٦٣٢ - ١٦٥٠
مضيق هرمز
الخليج
العربي
جلفار
رأس الخيمة
دبا
خورفكان
صحار
الباطنة
بركة
مطرح
مسقط
قريات
صور
رأس
الحد
الرستاق
الجبل الأخضر
نزوة
الحجر
الشرقية
الظاهرة


مسقط
ديو
جوراته
دامان
جوا
كاليكوت
سيلان
المحيط الهندي
تحرير سواحل
شرقي
افريقيا
مقديشو
ممباسا
بمبا
زنجبار
كلوة
رأس
دلگادو
جزر القمر
موزمبيق
١٦٥٠ - ١٦٩٨
ميادين الصراع
العماني - البرتغالي

٣٠- سرحان بن سعيد الازكوي، كشف الغمة الجامع لاخبار الامة، تحقيق عبدالمجيد القيسي ص ١٠١ . Miles p. 194.

٣١- Ibid, pp. 195 – 210.

٣٢- Ibid, p. 195

٣٣- Ibid,

٣٤- Bathurst, Maritime, pp. 98– 9 .

٣٥- G. P. Badger, History of the Imams and Seyyids of Oman, by Sali. Ibn Razik, London, 1871

٣٦- Bathurst, The Ya'Rubi, pp. 106– 7

ومن الجدير بالذكر ان هناك اختلافا بسيطا في تاريخ استسلام الحاكم العام في كتاب (Miles)، ففي الصفحة ١٩٦ يرد التاريخ المذكور في المتن، وفي ص ٢١١ يحدد يوم ٢٨ كانون الثاني .

٣٧- Miles, pp. 196 – 7.

انظر ايضا :

W. Phillips, Oman, a History, London 1967. pp. 46 – 47

٣٨- Bathurst, The YaRubi, p. 111, Miles, p. 198

٣٩- Bathurst, Maritime, p. 99

٤٠- Robert Landen, Oman Since 1856, Princeton, 1967, p. 54 .

٤١- سلطان بن سيف ١٦٤٩ - ١٦٧٩ ، بلعرب بن سلطان ١٦٧٩ - ١٦٩٢ سيف بن سلطان الاول ١٦٩٢ - ١٧١١ ، سلطان بن سيف الثاني ١٧١١ - ١٧١٨ .

٤٢- Charles Lockyer, An Account of Trade in India, London, 1711, pp. 206 – 7 .

٤٣- Alexander Hamilton, A New Account of the East Indies, ed. by : W. Fosger, London, rep 1930, Vol. I. P. 51.

٤٤- حدد السالمي طول المدفع بـ (٣٠٠ شبر) ما يقارب سبعة امتار السالمي ص ١٠٠ .

٤٥- Bathurst, The Ya'Rubi, p. 112.

٤٦- Miles, p. 198 .

٤٧- Ibid, Bathurst, Maritime, p. 99.

٤٨- Quoted in: Bathurst, The Ya'Rubi, p.113.

٤٩- Ibid, pp. 114 - 5.

٥٠- Phillips, p. 47.

٥١- Miles, p. 214-215, R. Coupland, East Africa and Its Invaders, Oxford, 1938, pp. 65 - 6; Charles Law, History of the Indian Navy 1613 - 1862, London, 1877, Vol. I, pp. 311 - 312.

Freeman Grenvile, The Coast 1498 - 1840, in: History of East Africa, ـ٥٢
Oxford, 1963, PP. 141 - 2.

Miles, pp. 220 - 1. ـ٥٣

Ibid, p. 222; Phillips, p. 49. ـ٥٤

William Milbrun, Oriental Commerce, or the East India Traders Complete ـ٥٥
Guide, London, 1813, Vol. I, p. 308 - 9.

R.H. Thomas, Treaties, Agreements and Engagements Between the ـ٥٦
H.E.I.C and the Native Princes. Bombay, 1851, pp. 563 - 4.

Coupland, p. 53. ـ٥٧

Singh p. 7 - 8. ـ٥٨

